سورة البقرة

المحاضرة السابعة عشر

الآيات من 91 : 96

إن الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وبعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار..

" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (91) "

ذِكر مرة أخرى لقبائح اليهود مع رسل الله:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ)

(مَآ) تأتي في القرآن على حوالي اثني عشر استعمالًا؛ ومن استعمالاتها أن تأتي(موصولة).

وهي هنا: موصولة بمعنى الذي، تفيد العموم.

أي وإذا قيل لهؤلاء اليهود آمِنوا بكل ما أنزل الله تعالى على رسوله من الحق والهدى..

- فأوجب عليهم الإيمان بالله وبكل ما جاء به موسى ومن بعده محمدﷺ فلا يُقتطع أو يُترك منه شيء!

(قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ)

فكان ردّهم أنهم لن يؤمنوا إلا بموسى عليه السلام، وأنبيائنا من بعد موسى! وهم في الحقيقة كاذبون؛ فقد اعترضوا على الإنجيل ومن بعده القرآن!

● ذمّ الله عز وجل فعلهم لأن واجب الإيمان يُحتم على الإنسان أن يأخذ شرع الله كاملا دون اقتطاع أو نقصان.

(وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا):

إشارة لما يجب عليهم من اتباع النبيﷺ وذلك من وجوه:

1- حق نبوتهﷺ؛ وقد أيّده الله تعالى بمعجزات تؤكد أن القرآن من عند الله؛ ولكنهم مع ذلك أعرضوا !

2- أنه مصدق لما معكم من التوراة؛ فقد قال تعالى:

(مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ) وفيها تقرير؛ فالنبيﷺ كان أميًّا، وكان لا ينطق عن الهوى، وما يخبره لأحبارهم كان مصدّقًا لما معهم من التوراة، كما أن التوراة أيضًا ذكرت نبوة محمدﷺ.

(قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)

تبكيت لبني إسرائيل ونوع من أنواع المناظرة والانتقال معهم من حال إلى حال؛ ليبيّن فساد عقولهم وأحوالهم وخبايا نفوسهم الفاسدة المعاندة.

- فلو كنتم صادقين في دعواكم فلِمَ سعيتم في قتل زكريا ويحيى وعيسى عليه السلام؟! بالرغم من أنه موجود عندكم في التوراة أنه لو أتى رسول بمعجزة وتيقّنتم أنه من عند الله فَقَتْلُه كفر!!

(فَلِمَ تَقۡتُلُونَ):

سؤال: لِمَ جاءت صيغة الفعل المضارع للمخاطب في عهد النبيﷺ (تقتلون) مع أنهم لم يقتلوا الأنبياء في عهد النبيﷺ ،ولم يكن هناك أنبياء غير النبيﷺ؟!

فالقتل كان في أسلافهم؟! فما وجه الجمع؟

قال العلماء:

- استعمال لفظة المضارع من الفصاحة والبلاغة والإعجاز؛ فالفعل المضارع على صفة الملازمة؛ فهؤلاء لديهم من قبح الأفعال (الكذب والافتراء والمبالغات في التشنيع على الأنبياء) حتى أصبحت صفة ملازمة لهم وإن لم يقتلوا في عهد النبيﷺ.

- كما يدل على استمرار أفعالهم المشينة الشنيعة السيئة في تركيبهم وتبجحهم وعصيانهم وتجرئهم.

" وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ (92)"

(وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ)

- الجملة استئنافية، ومعناها أن الجملة التي تأتي بعد الواو- والتي تسمى الواو الاستئنافية - ليست متعلقة بما قبلها من حيث المعنى أو الإعراب؛ فسينتقل الكلام إلى معنى جديد لايتعلق بالكلام الذي ذكُر قبله .

** في الجملة عدة مؤكدات:

- لام للتوكيد (لـقد)؛ وقيل اللام للتوطئة (أي: التهيئة بأن الجواب الذي سيأتي بعدها مبني على القسم الذي قبلها)

- (قد) للاستحقاق.

وقد: تأتي في الماضي للتحقيق، وفي المضارع للتقليل غالبًا.

(وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ)

هنا محذوف تقديره (بالآيات البيّنات)

(ٱلۡبَيِّنَٰتِ):

العلامات الدالّات؛ وقد تم ذكر عددهم في سورة الإسراء مجملا، وهم تسع آيات {وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ...(101)}

- ثم ورد تفصيل هذه الآيات في مواضع متفرقة وردت في :

الأعراف / النمل / طه / الشعراء / الصافات

- وهن: العصا، السنون، اليد، الدم، الطوفان، الجراد، القُمّل، الضفادع، وفَلْق البحر.

★ملحوظة: آية (فلق البحر) هناك نزاع بين العلماء فيها:

- هل هي من الآيات التسع، أم أنها مجرد معجزة أخرى؟
وأصحاب الرأي الأخير يعدون(نقص الثمرات) هي الآية التاسعة.

(ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ)

قال:(ثم) ولم يقل (و)؛ لأن(ثم) تفيد الترتيب والتراخي، وهي أبلغ من (و) في التقريع والتبكيت.

- أي عبادتكم للعجل لم تكن مفاجأة ولكن جاءتكم الآيات مرة بعد مرة ومعجزة بعد معجزة وعلى مدار مدة طويلة.. فلم تكونوا حديثي عهد بالإيمان!

أي بعد تأني وتمهّل وتفكّر منكم!

(ٱتَّخَذْتُمُ) من أفعال التصيير تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر

المفعول الأول (العجل)

المفعول الثاني محذوف تقديره (إِلَٰها) أي (ثم اتخذتم العجل إلهًا)وهذا من باب التحقير والتقليل من شأنه فلم يذكره.

- والقصة باختصار: عندما ذهب موسى لميقات ربه جمع السامريّ حُلِيّ بني إسرائيل وصنع به عجل له خوار(صوت) وقال هذا إلهكم وإله موسى !! فعبدوا العجل من دون الله.

(وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ)

- أصل كلمة(الظلم) توحي بالنقص، وكل النقص في عبادتكم للعجل؛ فعبادة العجل وُضعت في غير موضعها من كل وجه، لأنه عجل من صنع أيديهم، لا يتكلم ولا ينفع ولايضر، ولم يروا له معجزة!! وتم جحد الإله العظيم الذي أتى بالمعجزات والبينات العظيمة.

- إيهام المبالغة في (إطلاق لفظ الظلم) ؛ فالظلم أبوابه كثيرة (القتل، السرقة، الزنا، وكل معصية..) ولكن جعل لفظ الظلم مطلق في قوله تعالى (ظالمون) ليُشعر أن عبادة العجل وكأنها كل الظلم.

" وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (93)"

- بعدما ذكر الله عز وجل أحوالهم وعبادتهم للعجل، كشف حقيقتهم أمام أنفسهم والمسلمين وجميع مَن حضروهم في زمن النبيﷺ ومن بعدهم؛ لكي يوضح للجميع مدى كذبهم وادّعائهم أنهم لم يتبعوا إلا موسى!

(وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ) هو جبل الطور

أي اذكروا حين أخذنا عليكم عهدًا مؤكدًا باتباع موسى عليه السلام ورفعنا فوقكم الجبل تخويفًا لكم..

(خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ)

(وَٱسْمَعُواْ) السمع على وجهين:

1- قيل المراد سمع الإجابة والطاعة، أي أطيعوا

*** ومنها في الصلاة (سمع الله لمن حمد) أي: أجاب الله لمن حقق الحمد والشكر وعبده كما يحب ويرضى فالله سبحانه يجيبه، وليس المقصود به السمع الذي هو إدراك الأصوات لأن الله يسمع كل المخلوقات؛ فالله سميع.**

*** والدليل على هذا القول من القرآن: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ...(51) }(النور) أي سمع إجابة.**

2- وقيل: المراد اسمعوا بآذانكم ولا ترفضوا السمع؛ وذلك مثلما فعل بعض الكفار مع أنبيائهم مثل قوم نوح:

{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا (7)} (نوح)

وهنا المراد السمع بالأذن فقط وليس استجابة.

● وقد يرجح القول الثاني قول الله سبحانه وتعالى بعدها (قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا) لأنه لو كان سمع إجابة ماقالوا بعدها سمعنا وعصينا، ولكن عُلم من ذلك أنه سمع بالآذان فقط، والله تعالى أعلم.

(قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا)

- هل العصيان هنا بالحال(قلوبهم)، أم العصيان باللسان؟

الوجهان محتملان؛ ولكن العصيان بالحال هو الأقوى لأنه لا يرقى للعقل أن الجبل يكاد يطبق على أحدٍ ويقول سمعت وعصيت !!

ولكن العصيان هنا معقود في القلب.

(وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡ)

(وَأُشْرِبُوا) لفظ غاية في التبكيت

حب عبادة العجل خالط القلب وتمكّن منه وثبت فلا يستطيعون إخراجه مرة أخرى

(قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)

- (بِئْسَمَا) بئس: كلمة جامعة للمذام؛ أي بئس إيمانكم الذي تدّعون فجعلكم تعبدون العجل!

- (إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ) فليس هناك إيمان ابتداءً.

والله تعالى ليس بغافل عن أفعالكم.

" قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (94)"

أي قل أيها النبي: إن كانت لكم - يا يهود - الجنة في الدار الآخرة خالصة لا يدخلها غيركم من الناس، فتمنوا الموت واطلبوه، لتنالوا هذه المنزلة بسرعة إن كنتم صادقين في دعواكم هذه.

● وقال فريق من العلماء أن هذه الآية نوع من أنواع (المباهلة) (الملاعنة) بين النبي ﷺ وبني إسرائيل؛ والمقصود بها أن يجتمع الفريقان في مكان ويقول القائل منهم: أنا على حق ولعنة الله عليّ إن كنت من الظالمين، فتنزل بعدها اللعنة يقينًا على الظالم.

● والمباهلة لها شروط:

- فهي لا تكون إلا في أمر شرعي مشتبه فيه أو عناد من أحد في حكم ولا يمكن دفعه إلا بالمباهلة..

- ولا تقوم(المباهلة) إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة والترغيب والترهيب، فإن لم ينفع مع المجادل كل هذه الأمور لجأنا إلى المباهلة.

- وقد شدّد العلماء في شروط المباهلة لأنه أمر عظيم تنزل بعده اللعنة على الظالم من إحدى الفريقين، فلابد أن نقيم الحجة أولا فلعلّه جاهل فنرفع الجهل، أو لديه شُبهة فنزيل الشبهة، أو معاند فنخوّفه بالآيات البينات.

" وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) "

(أَبَدًا): نفي تأبيد.

لن يتمنوا الموت أبدًا،لأنهم يعلمون أنهم ليسوا أحباء الله وأنهم سينالون الخزي والعذاب بسبب ما قدموه في حياتهم من الكفر بالله، وتكذيب رسله، وتحريف كتبه.

- وقد علم النبي ﷺ - بالوحي- خباياهم وبأنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، وهذه من معجزات النبيﷺ لأنها من خبايا وبواطن الأمور،

ولا يعلم بواطن الأمور وخفاياها إلا الله عز وجل، فلا يعلمها النبيﷺ إلا بوحي، وفي هذا علامة وآية واضحة على صدق نبوة النبي محمدﷺ.

- لم يقبلوا المباهلة، وفي الآية انتقال في القرآن لبيان حال بني إسرائيل من حال لحال ومن سيئ لأسوأ.

سؤال: نهى النبي ﷺ تمني الموت، فلماذا قال لهم: (فتمنوا الموت)؟! الجواب:-

- إما للمباهلة كما فصّلنا.

- أو أنه من قبيل إلزامهم الحجة وإقامة البرهان على بطلان دعواهم وكذبهم؛ ولذلك ختم الله الآيات بـ(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

أي عليم بأفعالهم الشنيعة وعليم بهؤلاء الظالمي أنفسهم بارتكابهم الأشياء التي أوقعتهم في الكفر والعناد، وسيجازي كلًّا بعمله.

" وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ (96)"

(وَلَتَجِدَنَّهُمۡ) : (اللام للقسم) ، والنون للتوكيد

وأما جواب القسم فمحذوف وتقديره(اليهود)

(حَيَوٰةٖ): نكرة

والنكرة إما للتعظيم أو للتحقير؛ وفي هذا الموضع للتحقير

- أي حياة؛ حتى وإن كانت سيئة مليئة بالأمراض والهم والغم والشقاق والعناد والحروب .. فهم يتمسكون بالحياة وفقط.

(ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ) المقصود بالمشركين:

- قيل: المجوس

- وقيل: مشركو العرب.

فتجد اليهودي منهم حريص على هذه الحياة نتيجة طمس بصيرته؛ فلا أبصر الحق ولا أستطاع أن يصل لبر النجاة، وهم في ذلك الحرص على الحياة أشدّ من حرص المشركين الذين تأصّل في قلوبهم الكفر وتوارثوه ولا يؤمنون بالبعث، ومع ذلك لم يكن عند هؤلاء المشركين حرص اليهود على الحياة.

(يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ)

(لَوْ) شرطية لجواب محذوف تقديره (لو يُعمّر ألف سنة لكان أحب شيء إليه)

يتمنّى أن يعيش ويحيا ألف سنة وهو يعلم أن هذه الحياة لن تنجيه إطلاقًا!

استحوذ عليهم الشيطان وأنساهم الآخرة والحساب !

وهذه من أعظم الآيات لإزالة الداء العضال الذي تمكّن في قلوب كثير من المسلمين في طول الأمل.

فالعبرة بالتقوى والإيمان وليس بعدد الأعوام !

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.